المحاضرة الثالثة : خصوصية الظاهرة الاتصالية ومشروعية التوظيف البارادايغمي

المدخل عام

تعددت المداخل النظرية و البرادايغمات في بحوث الإعلام والاتصال بتعدد دراسات واتجاهات الباحثين، فضلاً عن تطور بحوث الإعلام التي تناولت الجمهور بالبحث، ويُعرف البرادايغم على أنه منظور أو تصور تتبناه جماعة علمية ما، يؤطر أبحاثها من الناحية النظرية وحتى المنهجية، فهو بمثابة نموذج إرشادي يوجه البحث. فالبرادايغم او الإطار الفكري هو مجموع النظريات المعتمدة والمسترشد بها ، فهي تلك الانجازات العلمية، والتي تُقبل في زمن معينّ، وفق " **توماس ساموبل كون**"، تمرّ العلوم خلال مراحل تطورها بفترات أزمات علمية أو ما يعرف بـ " التأزم العلمي " هذه الأزمات تولّد "ثورات علمية"، والتي بدورها تكرس مجموعة جديدة من النظريات عن طريق الغليان الفكري. وحين الحديث عن خصوصية الظاهرة الاتصالية فإنها لا تشذ عن وضعية العلوم الاخرى في سيرورة المعرفة العلمية ابتداء من دراسات تأثير وسائل الإعلام في الجمهور، وصولا إلى الجمهور كفاعل في العملية الاتصالية

1 البرادايغم السلوكي:

يتمثل في المدخل الذي ارتبط بثنائية المنبه/الإثارة والاستجابة، ويهتم هذا البرادايغم بدراسة تأثير وسائل الإعلام على الجمهور أي ماذا تفعل وسائل الإعلام بالجمهور؟ من زاوية أن وسائل الإعلام تعتبر المحفز او المنبه ورد فعلا لجمهور وسلوكه هي الاستجابة، ومن ميزات هذا البرادايغم نذكر:

- أن لكل منبه او فعل استجابة.
- يعتبر المدخل السلوكي أن وسائل الإعلام مثير قوي، وأن الأفراد متلقين يقبلون بسهولة تأثيراتها.
- أن ردود الفعل آلية، فبمجرد حدوث الفعل تحدث الاستجابة.

ومن النماذج الاتصالية التي تندرج ضمن مدخل التأثيرات نجد نموذج" هارلود لاسويل وفقاً للنموذج الخطي الذي وضعه عام 1948 وقال بأن الطريقة المناسبة لوصف عملية الاتصال تكون من خلال التساؤلات الآتية: من المرسل؟ ماذا يقول؟ بأي قناة؟ لمن؟ وبأي تأثير؟ وقد تحولت هذه التساؤلات فيما بعد إلى فروع بحثية تتمثل في" دراسات القائم بالاتصال، تحليل المحتوى، دراسة الوسيلة، دراسة الجمهور، دراسة التأثيرات.

ومن النظريات التي تندرج ضمن هذا البرادايغم نذكر:

- **نظرية الرصاصة الإعلامية** التي تعود أصولها إلى حوالي عام 1925م كنظرية تفسر التأثير القوي لوسائل الإعلام على الجمهور، ويُعد " ولبر شرام Wilber Schram" أول من أطلق إسم الرصاصة Bullet على نظرية التأثير القوي، فيما يُعد ''دافيد بيرلو'' David Berlo من أطلق عليها إسم الحقنة تحت الجلدHypodermice، والقذيفة السحرية او المنبه والاستجابة في كتابات "ميلفين ديفلير Melvin Defleur" بحيث يقف الجمهور عاجز أمام سطوة وقوة وسائل الإعلام ومضامينها.
- **نظرية انتقال المعلومات على مرحلتين** وهو منظور جاء بطروحات مختلفة لطبيعة تأثير وسائل الاعلام من زاوية نظرية الرصاصة الاعلامية غير أنه لم يبقى وفق الأنموذج السلوكي، التدفق على مرحلتين ظهر مع بداية الأربعينيات، وتعد من النظريات التي احدثت نقلة نوعية لبحوث الاعلام والاتصال وجاء بها "كاتز" و"لازار سفيلد" ليقوما بتعديل فكرة المنبه والاستجابة بإدخال مفهوم الاتصال الشخصي وقادة الرأي في انتقال المعلومات، بعد نتائج الانتخابات الرئاسية الأمريكية عام 1940 عندما نجح فرنكلين روزفلت للمرة الثانية رغم معارضة الإعلام له بشتى أنواعه .هذه النتيجة استثارت جملة من التساؤلات حول الاعتقاد بقوة تأثير وسائل الإعلام وانفرادها في هذا المجال ،حيث توصلت نتائج الدراسة التي أجراها لازار سفيلد وزملاؤه بعنوان" خيار الأمة "عام 1940 ودراسة "التأثير الشخصي " عام 1955 إلى أن تأثير وسائل الإعلام ليس تاما وقويا 100 % وأن الأبعاد السوسيولوجية وقوة العلاقات الاجتماعية لها تأثير في توصيل المعلومات للجمهور.

3. البرادايغم السيبرنطيقي

أفرز الذهاب نحو مشروعية الاتصال من منطلق سطوة المرسل ضمن فكرة أحادية اتجاه الرسائل إلى افراز عوائق في فهم الظاهرة الاتصالية في

ظل تغير الوسائل الاتصالية وملامسة حقل الاعلام والاتصال لحقول بحثية أخرى ومن ضمنها الرياضيات التي اعتبرت التصورات الرياضية أساس لكل تصوير اتصالي ولعل أهم ما يمثل هذا الاتجاه نموذج كلود شانون وويفر. برغم ما قدمه هذا النموذج من الناحية الابستمولوجية إلا أن الأعمال اللاحقة **لروبرت وينر** رائد البارادايغم السيبرنطقي أستاذ كلود شانون كانت تُعبر عن رفض التماسف مع المسار الذي اختاره شانون مع التغذية الراجعة feedback في أنموذجه الرياضي فأسس للتحاقل بين العلوم الاجتماعية والانسانية وعلم الآلات الفيزيائية والبيولوجية ضمن النموذج " السيبرنيطقي " الذي ينتهي لفكرة التفاعل بين عناصر الثقافة والعملية الاتصالية. كما كان هذا البارادايغم أهمية بالغة حيث أُدرج في كتاب الفكر الاتصالي لصاحبه **برينار مياج** وكتاب البرادايغمات المسيطرة في علوم الإعلام والاتصال واشكالياتها المعرفية لصاحبه الباحث حسن سعيد، وهكذا كان التأسيس النظري الجديد لعلوم الإعلام والاتصال من زاوية البارادايغم السيبرنطيقي .

غالبا ما يتم توظيف الدراسات السيبرنطيقية في الظواهر الاتصالية ذات الاتجاهات المتعددة والتي تعتمد على الخوارزميات الرقمية، إذ تضبح المجتمعات الافتراضية والنصوص المتشبعة مجالا مناسبا لتوظيف مرتكزات السيبرنطيقا في ظل تعقد الظواهر الاتصالية في العصر الرقمي.

3. البراديغم الوظيفي

ويمكن أن ندرج ضمنها المدخل الاجتماعي، فالبراديغم الوظيفي يعمل على إبراز دور وسائل الإعلام في المجتمع كونها بنيات ترتكز على دراسة الوظائف التي تقوم بها هذه الوسائل الإعلامية من أجل الحفاظ على استقرار المجتمع، مع الاشارة إلى أن عدم أداء وسائل الإعلام للوظيفة المطلوبة منها سيؤدي إلى ما يُسمى بالخلل الوظيفي.

وتستمد البنائية الوظيفية إرهاصاتها الفكرية من آراء مجموعة علماء الاجتماع التقليديين والمعاصرين، حيث اهتمت بدراسة كيفية حفاظ المجتمعات على الاستقرار الداخلي والبقاء عبر الزمن، وهو ما تمثل في أفكار ونُظم رواد علم الاجتماع الغربيين من أمثال "أوجست كونت" Auguste Comte ، "هربرت سبنسر" Herbert Spencer ، وأيضاً آراء العديد من علماء الاجتماع الأمريكيين المعاصرين مثل" تالكوت بارسونز " Talcott Parsons و "روبرت ميرتون" Robert C. Merton ، وغيرهم من رواد الجيل الثاني من علماء الاجتماع الرأسماليين، الذين امتدت آرائهم حتى نهاية السبعينات من القرن العشرين ، ووفقاً لمبادئ " النظرية البنائية الوظيفية التي تعتبر المجتمع منظومة كلية مكونة من عدة أجزاء فاعلة و مترابطة ، فإن وسائل الإعلام تُمثل إحدى المنظومات الجزئية التي تتطلب الحياة الاجتماعية مشاركتها المستمرة.

ويندرج ضمن المدخل الوظيفي نظريات منها:

1. **نظرية الاستخدامات والاشباعات1972**: وصف إليهو كاتز (Elihu Katz)، الذي شارك بول لازارسفيلد بحوثه، وزملاؤه نظرية الاستخدامات والإشباعات بالقول: "إنها محاولة لشرح ظاهرة –الإعلام– بسؤال الفرد عن طريقة استعماله لوسائل الاتصال لإشباع حاجاته وبلوغ أهدافه بدل مصادر أخرى متوافرة في محيطه، فالجمهور لم يعد –من منظور هذه النظرية– كتلة واحدة متجانسة؛ يخضع للرسائل التي يتعرض لها فتؤثر في سلوكه وآرائه، بل مجموعات مختلفة بعاداتها الثقافية وحاجاتها الاتصالية والنفسية واستخداماتها المختلفة لوسائل الإعلام.

2. **نظرية الاعتماد على وسائل الإعلام**: تهدف النظرية التي وضعها كل من ساندرابول روكتشين وميلفين ويلفير عام 1976، بشكل رئيسي إلى الكشف عن أسباب التفاوت في أثر وسائل الإعلام على النظام الاجتماعي والجمهور، حيث يكون لها أحياناً تأثيرات قوية ومباشرة، وفي أحيان أخرى تأثيرات غير مباشرة وضعيفة نوعاً ما. فهي تنظر إلى المجتمع باعتباره تركيباً عضوياً، وترتبط فيه أجزاء من النظم الاجتماعية بروابط وعلاقات، وهي تبحث في كيفية ارتباط هذه الأجزاء ببعضها البعض، والعلاقات بينها، والتي قد تتسم بالتعاون أو الصراع، وقد تكون ثابتة ساكنة، أو ديناميكية متغيرة .

3 البراديغم النقدي :

المدخل النقدي، "Theorie Critique" ومثّله كلّ من هوركيمر وأدورنو وماركيوز المنتمين إلى مدرسة فرانكفورت. لقد عمل هذا التيّار على فضح الخلل الوظيفي لوسائل الإعلام، والمتمثل في دعمها لسياسة الهيمنة في المجتمع من خلال دعم الوضع القائم أو ما أطلقت عليه الثبات الإجتماعي ، وتشويهها للأعمال الثقافيّة الرّاقية، فمن خلال أعمال رواد الجيل الأول التي انطلقت من الفكر الماركسي تبنت فكرة الجماهير

المسلعنة ثقافيا ففكرة " سلعنة الثقافة " هي أحد أشكال انهيار العقل النقدي للأفراد والذي أصبح خاضعا للمحتوى الاعلامي الذي أدخل الثقافة في الافلاس فغدت بذلك تعبر عن انتشار" **ثقافة جماهيرية** " هابطة، وقد ارتبطت هاته المصطلحات بما افرزه رواد المدرسة من اصطلاحات مستحدثة مثل الانسان ذو البعد الواحد والتشيؤ والعقل الآداتي والهيمنة التي اصبحت مفاتيح أساسية في فهم الدراسات الناقدة للمحتوى الاعلامية.

4 البرادبغم التفسيري

يعبر هذا البارادبغم عن حالة امتداد معرفي يثير الجدل في كثير من الزاويا المركبة له فهو يعبر في طرحه العام عن كل ما يرتبط باللغة كرمز وعلامة والذي ينبثق من الفلسفة البنوية والتي تطورت على يد دي سوسير وكلود ليفي شتراوس ووصولا لأعمال لبارث وبلومر وهربرت ميد وغوفمان، كما يحيل لطرح التلقي والتأويل والذي تبلور في أعمال مركز التحليل الثقافي في برمنغهام على يد روبن ويليامز ريتشارد هوجرت وجون استوارت هول، ويمكن الاستعانة برافدين أساسين في البرادبغم التفسيري

– **مركز برمنغهام للتحليل الثقافي** : تأسست مدرسة التحليل الثقافي العام في رحاب مركز الدراسات الثقافية المعاصرة بجامعة برمنغهام في بريطانيا عام 1964 إلا أن أصولها ترجع إلى نهاية الأربعينات ومطلع الخمسينات، ومن أبرز أعلامها ريشارد هوجارت وستيورت هال وريموند ويليامز وتبرز أهم أعمال المركز من خلال الربط بين الثقافة والإعلام في إطار اهتمامها بتحليل معني الثقافة، لقد انتجت مدرسة التحليل الثقافي الكثير من الأعمال التي تتناول التحليل الثقافي في جوانب الحياة اليومية. على الرغم من أن الموضوع كان مفتوحًا لجميع المواقف النظرية، إلا أنه كان مدفوعًا بشكل أساسي بثلاثة مجالات رئيسية تشمل الماركسية والسيميائية والنسوية، وكان مرتكز تلك الدراسات هو الانطلاق من أداة التحليل الخطاب في اطار تغييب الوعي لدي الجمهور، دون اغفال دور الخطاب الإعلامي بخاصة في عملية التفاعل الاجتماعي، حيث تتجلى أيقونة أعمال مركز برمنغهام في أنموذج " **التشفير وفك التشفير** " لاستوارت هول الذي قسم نمط القراءة إلى ثلاث أنواع : نمط مهيمن ويخضع للمقصد الضمني للنص ونمط مفاوض ويحاول استجلاء معاني خاصة به دون رفض مقصد المرسل " النمط المهيمن " ونمط معارض وهو الذي يرفض النص الاعلامي ويصنع من خلاله دلالاته الخاصة دون الخضوع لمقاصد المرسل.

– **التفاعلية الرمزية** : ظهرت النظرية التفاعليه الرمزية في بداية الثلاثينات من القرن العشرين على يد العالم جورج هربرت ميد George Herbert Mead ، تدور فكرتها حول مفهومين أساسيين هما: الرموز والمعاني في ضوء صورة معينة للمجتمع المتفاعل، وتشير التفاعلية الرمزية إلى معنى الرموز على اعتبار أنها القدرة التي تمتلكها الكائنات الإنسانية للتعبير عن الأفكار باستخدام الرموز في تعاملاتهم مع بعضهم البعض. ويُعد عالم الاجتماع هربرت بلومر Herbert Blumer من أطلق تسمية "تفاعليّة رمزيّة" عام 1937 ، وتتمثّل في أنّ ثمّة تفاعلات مستمرّة بين الأفراد حول التأويلات التي يعطونها لمواقف وسلوك أيّ منهم، فاللغة والتمثّلات التي نصفها بالرمزيّة تلعب دوراً كبيراً في هذه التفاعلات، من هنا كان اشتقاق التعبير المستخدم "التفاعليّة الرمزيّة" ،وتهتمّ التفاعليّة الرمزيّة أساساً بطرق تشكّل المعاني أثناء عمليّة التفاعل، وهي تُعنى بالبحث في "أشكال التواصل والتمثّلات التي تدخل في إطار العلاقات ما بين الأفراد من هذه الزاوية لا يعتبر المجتمع ولا المؤسّسات والعلاقات الاجتماعيّة معطيات، أو ضغوطات موجودة سلفاً، بل هي أمور يُعاد بناؤها، أو مناقشتها وتأويلها من ضمن التفاعل والتبادل اليوم.